بصائر | رسالة ٢

طريقنا إلى اللَّه

مقامات الدين • تزكية النفس • الذكر وفضله



إعداد
د. بدر أبو المجد

قراءة • تدبر • عمل

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ربّ العالمين، الهادي إلى صراطه المستقيم، الذي أنار قلوب عباده بنور الإيمان، ودعاهم إلى تزكية نفوسهم، وطهارة قلوبهم، ومداومة ذكره وشكره وحسن عبادته.

نحمده سبحانه على نعمه الظاهرة والباطنة، ونستعينه على طاعته ومرضاته، ونسأله الهداية والتوفيق والسداد.

والصلاة والسلام على سيّدنا محمد، النبيّ الأمين، والرسول الكريم، الذي بعثه الله رحمةً للعالمين، وهاديًا إلى سبيل ربّه بإذنه، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إنّ السير إلى الله تعالى سبيل المؤمن إلى رضوان ربّه، وقوامه صدق الإيمان، وصلاح العمل، وتزكية النفس، ودوام الذكر. وقد جمع الدين معالم هذا الطريق في مقامات ثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان. فبالإسلام تستقيم الجوارح على الطاعة، وبالإيمان يطمئنّ القلب ويقوى يقينه، وبالإحسان تتحقّق مراقبة الله تعالى في العبادة والعمل.

ولمّا كانت النفس عرضةً للغفلة والهوى، احتاج السالك إلى تزكيتها، بتطهيرها من الأخلاق المذمومة، وتحليتها بالصفات الحميدة. وكان الذكر من أعظم ما يعينه على ذلك، لما فيه من إحياء القلب، وتجديد الصلة بالله تعالى، والثبات على طاعته.

وفي هذه الرسالة «طريقنا إلى الله»، نعرض جملةً من معالم هذا الطريق، فنبيّن مقامات الدين، ومعنى تزكية النفس، وفضل الذكر وحقيقته وأقسامه، ونعرّف بالأذكار الخمسة وما يتصل بها من المعاني والآثار.

وقد استفدنا في إعداد هذه الرسالة من كتاب «بغية السالك في أشرف المسالك» للإمام محمد بن محمد الساحلي، واتخذناه مرجعًا أساسيًا في عرض مقامات الدين وتزكية النفس وفضل الذكر ومعانيه.

وهذه الرسالة مدخل إلى معرفة الطريق، أما تفصيل المقامات وأحوال السالكين وآداب السير وأذكاره، فلعلّ الله ييسّر بسطها في رسائل أخرى من سلسلة «بصائر».

ونسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يرزقنا صدق التوجّه إليه، وحسن العمل بطاعته.

> فالسير إلى الله تعالى يبدأ بمعرفة الطريق، ويستقيم بتزكية النفس، ويقوى بذكر الله والعمل بطاعته.

الفصل الأول: مقامات الدين

يقوم الدين على ثلاثة مقامات: الإسلام، والإيمان، والإحسان. وقد بيّنها النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور، الذي يروي فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ في صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد من الحاضرين. فجلس إلى النبي ﷺ، وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان.

فقال ﷺ في الإسلام:

> «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا».
>
> من حديث جبريل، رواه مسلم، ٨

وقال ﷺ في الإيمان:

> «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».
>
> من حديث جبريل، رواه مسلم، ٨

وقال ﷺ في الإحسان:

> «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».
>
> من حديث جبريل، رواه مسلم، ٨

وفي ختام الحديث، كشف النبي ﷺ عن هوية السائل، فقال لعمر رضي الله عنه: «فإنه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم».

فالإسلام هو الانقياد الظاهر للعمل بما كُلّف به العبد من وظائف الدين، مع ما لا بدّ منه من التصديق.

والإيمان هو التصديق القلبي بجميع ما تضمّنه الدين من الإخبار بالغيوب، مع ما لا بدّ منه من شعبه.

والإحسان هو تحسين جميع وظائف الدين الإسلامية والإيمانية، بالإتيان بها على أكمل شروطها وأتمّ وظائفها، خالصةً من شوائب عللها، سالمةً من طوارق آفاتها.

> والإسلام داخل تحت نطاق الإيمان، والإيمان داخل تحت نطاق الإحسان؛ إذ لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إحسان لمن لا إيمان ولا إسلام له.

وقد تغلب على السالك أوصاف مقام من هذه المقامات، فيُسمّى به، مع بقاء غيره فيه؛ فكل مقام لا بدّ أن يكون فيه من غيره نصيب قليل أو كثير.

والسير في هذه المقامات يكون بالتدرّج، فيبدأ العبد بتحقيق ما يقتضيه كل مقام من أعمال وصفات، ثم يجتهد في ترسيخها في نفسه حتى تستقيم أحواله عليها.

فكل مقام يمهّد لما بعده، فالإسلام أساس الإيمان، والإيمان أساس الإحسان، والإحسان يفتح للعبد باب التقرّب إلى الله تعالى ومعرفته.

ولا يكفي في تحصيل هذه المقامات مجرّد العلم بها، بل لا بدّ من العمل بمقتضاها، وتزكية النفس مما يعوقها، حتى يظهر أثرها في القلب والسلوك.

الفصل الثاني: تزكية النفس وطهارتها

خلق الله الإنسان وألبسه أثواب الطهارة والزكاة، وجعل بين النفس والجسم تعلّقًا عجيبًا وارتباطًا غريبًا. غير أن النفس، لقربها من الجسم وبُعدها عن عالمها، تتأثر بمقتضياته، وتتعلّق بأوصافه، حتى تتلوّث بأدران الشهوات، وتغفل عن خالقها.

قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾

[الشمس: ٩-١٠]

والعبد مطالب بخلاص نفسه من علّلها، وطهارتها من أدرانها، وخرق حجابها عن خالقها، حتى يصحّ مزاجها ويعتدل، وتتجرّد من أثواب شهواتها، وتتحلّى بالأوصاف التي كانت عليها قبل التركيب.

> وطهارة النفس لباب العمل، كما أن العمل لباب العلم، وهي الغاية التي من أجلها تُبذل الجهود وتُشدّ العزائم.

ولمّا عجزت العقول عن إدراك أسباب خلاص النفس من علّلها، بعث الله النبيين، صلوات الله وسلامه عليهم، هداةً للعقول إلى ما فيه خلاص الأنفس من رقّ شهواتها، وانقاذها من أسر غفلاتها، وطهارتها من دنس سيئاتها، وإخراجها من الظلمات إلى النور.

فجاءوا بوظائف العبادات وشرائع الدين، منها ما يختصّ بالباطن، ومنها ما يختصّ بالظاهر.

الترابط بين أعمال الظاهر وأعمال الباطن

جعل الله تعالى بين أعمال الظاهر وأعمال الباطن مناسبةً للارتباط بين الباطن والظاهر؛ فإذا دخلت بشاشة الإيمان الباطن، حرّك الظاهر للعمل، وإذا تلبّس الظاهر بأعمال ذلك الموجب، سرّت منه أنوار إلى الباطن، فتقوّى الإيمان، ولا يزال كذلك حتى ينتهي إلى الغاية التي ليس بعدها مرمى.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾
[العنكبوت: ٤٥]

وجعل الله سبحانه العمل الخالص الجاري على منهج العلم مطهّرًا للنفس من أدرانها، ومخلّصًا لها من علالها؛ فطهارة النفس ثمرة العمل، كما أن العمل ثمرة العلم.

فإذا تحلّت النفس بالأخلاق الحميدة، وتبرّأت من الأخلاق الذميمة، ارتفع عنها حجاب الغفلة، وانكشف لها من المعارف ما لم تكن تدركه من قبل.

ولذلك كانت الحكمة في معرفة علل النفس وأسبابها، والعلم بوجوه الخلاص منها وكيفية طهارتها، حتى تنال النفس طيب الحياة والراحة الدائمة.

الأنبياء أطباء النفوس

إن علاج الأنفس أمر ضروري، ولا يُعرف دواؤها إلا من أطباء النفوس، وهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ونبينا ﷺ هو الطبيب الأعظم والإمام الأكبر، وأسباب العلاج موجودة في الكتاب والسنة.

قال الله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾
[الجمعة: ٢]

والمقصود الأعظم من الشريعة هو تطهير النفس من كدرات مقتضيات الجسم، والتحلّي بالأوصاف النفسية، والتحلية بالأوصاف الحميدة، حتى تصل إلى معرفة الله تعالى.

ولا يكون ذلك إلا بعد معرفة النفس وعللها وأسبابها، ووجوه الخلاص منها وكيفية طهارتها.

طهارة النفس الأصلية وتزكيتها

اعلم أن النفس كانت قبل تركيبها بالجسم طاهرةً صافيةً زكيةً، متصفةً بتسع وتسعين صفة حميدة، تناسب طهارتها وزكاتها.

فلما تركّبت بالجسم ومالت إلى طبعه، تخلّقت بمقتضياته، واتصفت بصفات ذميمة منافية لتلك الصفات الحميدة، وتعلّقت بذلك حجبها عن أوصافها الحميدة التي تصل بينها وبين عالمها.

وكل ما ورد به الشرع إنما هو طريق لتحلية النفس بالصفات الحميدة، وتزكيتها عن الصفات الذميمة.

وليس المراد بالتخلية والتزكية ما يوجد في النفس وقتًا دون وقت، وإنما المراد أن تتصف بالصفات الحميدة وتتطبع بها، حتى تصير راسخةً فيها.

فبسلوك مقامات الدين، وقطع منازلها على أكمل أحوالها، تكمل طهارة النفس وتصفيتها، وترجع إلى ربها مطمئنةً راضيةً مرضيةً، وتنجلي لها حقائق الأسرار.

الفصل الثالث: فضل الذكر وحقيقته

اعلم أن من أفضل ما يتقرّب به إلى الله تعالى طريق الذكر، وهو من أجلّ الوسائل إلى المعرفة به، كما قال تعالى:

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾
[العنكبوت: ٤٥]

وقال سبحانه:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾
[البقرة: ١٥٢]

وقد أمر الله تعالى بالإكثار من ذكره في جميع الأحوال، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾
[الأحزاب: ٤١-٤٢]

وقال رسول الله ﷺ:

«أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى».

رواه الترمذي، ٣٣٧٧؛ وابن ماجه، ٣٧٩٠، عن أبي الدرداء رضي الله عنه

وإنما كان الذكر من أعظم أعمال البر، لما له من أثر في تصفية النفس وتطهيرها من علّلها، وتقوية الإيمان، والترقّي في مقامات المعرفة بالله تعالى.

وحقيقة الذكر هي:

إقامة معنى التوحيد في النفس حتى يصير صفة لها لا تنفكّ عنه.

وهذه الحقيقة هي المطلوبة من جميع العباد، غير أن بلوغها يختلف بحسب الوسائل التي تُتَّخذ، فمنها الباطن ومنها الظاهر، ومنها القريب ومنها البعيد. ومن وسائل البداية إعمال الفكر، وتلاوة القرآن الكريم، والذكر بأسماء الله تعالى أو بصفة من صفاته.

وليس المراد من الذكر مجرّد دورانه على اللسان، بل أن يستولي ذكر الله على النفس، حتى تتخلّص من علّلها، وتتحلّى بمعاني الإيمان، ويطمئنّ القلب بذكر ربّه، كما يشير إليه قوله تعالى:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾
[الفجر: ٧٢-٨٢]

ذكر الأجور وذكر الحضور

الذكر باعتبار الذاكرين على قسمين: ذكر أجور، وهو ذكر العامة، وذكر حضور، وهو ذكر الخاصة.

فذكر الأجور هو ذكر الإنسان لله تعالى بما شاء من الأذكار، لا يقصد به إلا نيل ما وعد الله الذاكرين من الأجور، وهو من سائر أعمال البر.

وأما ذكر الحضور، فهو التزام أذكار معلومة بحسب أحوال مخصوصة، على سبيل الاستشفاء من علل النفس، والخلاص من أمراض متعلّقاتها، لتجريدها عن الأخلاق الذميمة وتحليتها بالأخلاق الحميدة.

وهو على ثلاثة أقسام:

ذكر اللسان — مقام الإسلام

ويُعنى به قيام اللسان بحركة لفظه، مع متابعة القلب لما أمكن من معناه.

ذكر القلب — مقام الإيمان

ويُعنى به تمكّن معنى الذكر في القلب حتى لا ينفكّ عنه، مع متابعة اللسان لما أمكن من لفظه.

ذكر الروح — مقام الإحسان

ويُعنى به الاستغراق في سرّ التوحيد، مع متابعة ما تيسّر من الذكر باللسان.

وهذه الأقسام تختلف أسماؤها باختلاف صفاتها، غير أن المقصود منها واحد، وهو خلاص النفس من عللها، وطهارتها من كدراتها، وتحلّيها بالصفات الحميدة.

أقرب وسائل الذكر

وأقرب وسائل الذكر: ذكر اللسان أولًا، ثم ذكر القلب ثانيًا، ثم ذكر الروح ثالثًا.

فإذا أدار الذاكر لفظ الذكر على لسانه، وتابعه الفكر بتدبّر معناه مرة بعد مرة، انطبع مقتضى ذلك المعنى في النفس، وظهر أثره في صفاتها وأعمالها.

وبحسب الدأب والمداومة على الذكر، يكون استحكام اتصاف النفس بما يقتضيه الذكر.

فإذا تقرّر هذا المعنى، وظهرت آثاره على النفس، كان الذكر من أعظم الوسائل إلى المعرفة بالله تعالى.

الفصل الرابع: الأذكار الخمسة

جاءت الشريعة بأذكار كثيرة ومتنوعة، تُعين العبد على ذكر الله تعالى، وتزكية نفسه، وتطهيرها من عللها، وتحليتها بالصفات الحميدة.

ومن بين هذه الأذكار، نخصّ بالعرض في هذه الرسالة خمسة أذكار لها مكانة في طريق السالكين، وهي:

> الاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ، والتهليل، والتنزيه، والإفراد.

وسنبيّن معنى كل ذكر منها، وما يتصل به من فضائل وآثار في تزكية النفس، وتقوية صلتها بالله تعالى.

١. الاستغفار

الاستغفار طلب المغفرة من الله تعالى، وهو من أعظم أسباب محو الذنوب والرجوع إليه بالتوبة.

قال تعالى:

> ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
>
> [النساء: ١١٠]

وقال النبي ﷺ:

> «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً».
>
> رواه البخاري، ٦٣٠٧

٢. الصلاة على النبي ﷺ

الصلاة على النبي ﷺ من الأذكار التي ترسّخ محبته وتعظيمه في النفس، وتذكّر المؤمن بمكانته وأهمية اتباع هديه.

قال تعالى:

> ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾
>
> [الأحزاب: ٥٦]

وقال رسول الله ﷺ:

> «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا».
>
> رواه مسلم، ٨٠٤

٣. التهليل

التهليل هو قول: «لا إله إلا الله»، وهو أصل كلمة التوحيد، وبه يتجدّد في النفس معنى إفراد الله تعالى بالعبادة.

قال تعالى:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾
[محمد: ٩١]

وقال النبي ﷺ:

«أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ».
رواه الترمذي، ٣٨٣٣؛ وابن ماجه، ٣٨٠٠، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

٤. التنزيه

التنزيه هو تسبيح الله تعالى وتقديسه عمّا لا يليق بجلاله وكماله، وهو مما يعين على تصفية معنى التوحيد في النفس.
قال تعالى:

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾
[الأعلى: ١]

وقال النبي ﷺ:

«كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ».
رواه البخاري، ٦٠٤٦؛ ومسلم، ٤٩٦٢

٥. الإفراد

الإفراد هو ذكر اسم الله المفرد، وقد عُدّ في بعض مناهج السلوك من الأذكار التي يُقصد بها استحضار عظمة الله تعالى وترسيخ التعلّق به.
ومن الآيات التي استُدلّ بها في هذا السياق قوله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾
[الأنعام: ١٩]

وقوله سبحانه:

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾
[العنكبوت: ٤٥]

وقال رسول الله ﷺ:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ، اللَّهُ».
رواه مسلم، ٨٤١

ويُبيّن النبي ﷺ في هذا الحديث أن الساعة لا تقوم ما دام في الأرض من يذكر الله تعالى ويعبده، وإنما تقوم على قوم لا يذكرون الله ولا يعبدونه، وهم شرار الخلق.

والمقصود من هذه الأذكار أن تعين العبد على دوام ذكر الله تعالى، وتقوية الإيمان، وتزكية النفس وتطهيرها من الأخلاق المذمومة.

وقد تختلف كيفيات استعمالها بحسب أحوال السالكين ومناهجهم، غير أن هذه الرسالة تقتصر على التعريف بها وبيان معانيها العامة، أما تفصيل كيفياتها وما يرتبط بها من أحوال ومقامات، فيمكن تناوله في رسائل مستقلة إن شاء الله تعالى.

الفصل الخامس: من معرفة الذكر إلى العمل به

ليس المقصود من معرفة فضل الذكر وأقسامه الاكتفاء بالعلم بها، بل أن ينتقل العبد من المعرفة إلى العمل والمداومة، حتى يظهر أثر الذكر في قلبه ونفسه وسلوكه.

فالذكر من وسائل تزكية النفس، يعين على مجاهدة عللها، والتخلّص من الأخلاق المذمومة، والتحلّي بالصفات الحميدة.

ومن هنا كانت العناية بمعنى الذكر لا تقلّ أهمية عن التلفّظ به؛

فإذا أدار الذاكر لفظ الذكر على لسانه، وتابعه الفكر بتدبّر معناه مرة بعد مرة، كان ذلك أدعى إلى رسوخ معناه في النفس، وظهور أثره في الأعمال والأخلاق.

المداومة واستحضار المعنى

ومن أهمّ ما يعين على الانتفاع بالذكر المداومة عليه، واستحضار معناه، والاجتهاد في العمل بمقتضاه.

فليس المقصود مجرّد تكرار الألفاظ، بل أن يتجدّد بها حضور القلب، وتقوى صلته بالله تعالى، ويظهر أثر ذلك في سلوك الإنسان ومعاملاته.

وكلّما اجتمع ذكر اللسان مع تدبّر القلب والعمل الصالح، كان ذلك أدعى إلى تحقيق المقصود من الذكر في تزكية النفس وإصلاحها.

في التربية والاقتداء

تحتاج تزكية النفس إلى معرفة عيوبها، ومجاهدة ما يغلب عليها من عللها، والعمل على إصلاحها بما جاء به الكتاب والسنة.

وقد اختلف أهل السلوك في لزوم اتخاذ شيخ للتربية؛ فمنهم من رأى أن العبد يستطيع أن يسلك طريق التزكية بالمحافظة على حدود الشريعة، والقيام بالعبادات والطاعات، واجتناب المعاصي والمخالفات.

ومنهم من رأى أهمية التربية على يد شيخ مؤهّل، يعرف أحوال النفوس وعللها، ويعين السالك على إصلاح نفسه والتدرّج في تهذيب أخلاقه.

والمقصود في الحالين هو طاعة الله تعالى، وتزكية النفس، والاستقامة على أمره.

والاقتداء بأهل العلم والصلاح والانتفاع بتوجيههم من الوسائل المعينة على ذلك، على أن يكون أساس التربية الالتزام بالكتاب والسنة، والعمل بما فيهما من هداية.

> وهكذا يتكامل العلم والعمل والذكر في السير إلى الله تعالى؛ فالعلم يدلّ على الطريق، والعمل يحقّق مقتضاه، والذكر يعين على الثبات فيه.

الفصل السادس: برنامج عملي

بعد معرفة مقامات الدين، ومعنى تزكية النفس، وفضل الذكر وأقسامه، يحسن أن ينتقل السالك من المعرفة إلى العمل، وأن يجعل لنفسه وردًا من القرآن والذكر، يحافظ عليه بحسب استطاعته.

القرآن الكريم أصل الهداية والتزكية

القرآن الكريم كلام الله تعالى، ومصدر الهداية والتزكية، ومن أعظم ما تحيا به القلوب.

> ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾
> [الإسراء: ٩]

فينبغي للمؤمن أن يجعل له وردًا يوميًا من القرآن الكريم، يجمع فيه بين التلاوة والتدبّر، والنظر فيما تدعو إليه الآيات من إيمان وعمل وأخلاق.

وله أن يبدأ بما يتيسّر له، ولو بصفحة أو صفحتين كل يوم، ثم يزيد بحسب استطاعته، مع الحرص على فهم ما يقرأ والعمل بما يتعلّمه.

التخلية والتحلية والتجلية

يمكن للسالك أن يستعين في تزكية نفسه بثلاثة معانٍ متكاملة: التخلية، والتحلية، والتجلية.

التخلية بالاستغفار:

وهي تطهير النفس من الذنوب والعلل، بالتوبة الصادقة ومجاهدة الهوى، وملازمة الاستغفار، ومن ألفاظه:

> أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ.

فيستحضر العبد تقصيره، ويسأل ربّه المغفرة، ويعزم على إصلاح ما فسد من عمله.

التحلية بالصلاة على النبي ﷺ:

وهي تحلية النفس بالأخلاق الحميدة، والاقتداء برسول الله ﷺ في عبادته ومعاملاته، مع الإكثار من الصلاة والسلام عليه، ومن صيغها:

> اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

ويجتهد العبد في أن تظهر محبته للنبي ﷺ في اتباع سنّته، والتخلّق بما دعا إليه من الرحمة والصدق وحسن الخلق.

التجلية بالتهليل:

وهي تقوية معنى التوحيد في القلب، وتجديد الإخلاص لله تعالى، واستحضار عظمته ومراقبته في السرّ والعلن.

ومن أعظم ألفاظ التوحيد:

> لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

فيتدبّر العبد معناها، ويجدّد بها إيمانه، ويجتهد في تحقيق مقتضاها في عبادته وسلوكه.

وهذه المعاني الثلاثة متكاملة، ولا تنحصر التخلية أو التحلية أو التجلية في ذكر واحد، وإنما خُصّت هذه الأذكار بالذكر هنا لتقريب العمل بها.

الأوراد اليومية وأوقاتها

الصلاة عماد الدين، وهي أعظم ما ينتظم به يوم المؤمن وليلته. فالمحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها، والخشوع فيها، من أهمّ ما يعين على تزكية النفس ودوام الصلة بالله تعالى.

وتأتي الأوراد اليومية من القرآن والذكر لتعين العبد على استحضار الله تعالى في سائر أوقاته.

قال الله تعالى:

> ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾
>
> [الروم: ١٧-١٨]

وقت السَّحَر:

وهو من الأوقات المباركة للدعاء والاستغفار، وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين فيه.

> ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾
>
> [آل عمران: ١٧]

فيجتهد العبد، إن تيسّر له، في الاستغفار والدعاء في آخر الليل.

بعد صلاة الفجر:

يقرأ ما تيسّر من القرآن الكريم، ويأتي بأذكار الصباح، ويستغفر الله تعالى، ويصلّي على النبي ﷺ، ويهلّل ويسبّح.

عقب الصلوات المفروضة:

يحافظ على الأذكار الواردة بعد الصلاة، ويجعل من كل صلاة فرصةً لتجديد ذكر الله تعالى، واستحضار مراقبته.

وقت المساء:

يأتي بأذكار المساء، ويذكر الله تعالى بالاستغفار والتهليل والتسبيح، والصلاة على النبي ﷺ.

قبل النوم:

يختم العبد يومه بمحاسبة نفسه، والاستغفار من تقصيره، والعزم على إصلاح ما يستطيع، ويأتي بأذكار النوم الواردة عن رسول الله ﷺ.

المداومة ومحاسبة النفس

وأصل هذا البرنامج المحافظة على الصلاة، والمداومة على القرآن والذكر، والعمل بما يتعلّمه العبد.

وقد سُئل النبي ﷺ عن أحبّ الأعمال إلى الله، فقال:

> «أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ».
> [متفق عليه]

فليجعل العبد لنفسه وردًا يستطيع المحافظة عليه، وليحرص على حضور قلبه وتدبّر ما يقول، وليحاسب نفسه على ما مضى من يومه.

فإن وجد خيرًا حمد الله تعالى، وإن وجد تقصيرًا استغفره وعزم على الإصلاح.

> بالتخلية تطهر النفس من علّلها، وبالتحلية تتزيّن بالأخلاق الحميدة، وبالتجلية يقوى فيها نور التوحيد، والقرآن الكريم هداية السالك في جميع ذلك.

وهذا برنامج أوليّ للمبتدئ في السير إلى الله تعالى، أما تفصيل المقامات ومنازلها وآدابها وأذكارها، فلعلّ الله ييسّر بيانه في رسائل أخرى من سلسلة «بصائر».

خاتمة: من معرفة الطريق إلى السير فيه

طريقنا إلى الله تعالى طريق إيمان وعمل وتزكية، تتكامل فيه مقامات الإسلام والإيمان والإحسان، ويجتهد فيه العبد في إصلاح نفسه، وتطهير قلبه، والاستقامة على طاعة ربّه.

وقد تعرّفنا في هذه الرسالة إلى معالم هذا الطريق، وإلى مكانة تزكية النفس فيه، وفضل الذكر وحقيقته وأقسامه، وما تحمله الأذكار من معانٍ تعين على تقوية الإيمان وإصلاح القلب والسلوك.

غير أن معرفة الطريق ليست هي الغاية، بل المقصود أن نسلكه، وأن نجعل لما نتعلّمه أثرًا في عبادتنا وأخلاقنا ومعاملاتنا.

فالذكر ليس مجرّد ألفاظ تتردّد على اللسان، وإن كان ذكر اللسان من أبواب الخير، بل هو وسيلة لتجديد الصلة بالله تعالى، وإيقاظ القلب من غفلته، وتذكيره بما خُلق من أجله.

وكلّما اجتمع ذكر اللسان مع حضور القلب، وصدق النيّة، والعمل الصالح، كان ذلك أدعى إلى الانتفاع بالذكر وظهور أثره في تزكية النفس.

ومن هنا، فإن أول ما ينبغي أن نحرص عليه هو المحافظة على ما ثبت من الأذكار المشروعة، والاجتهاد في فهم معانيها، والمداومة عليها، دون أن ننشغل بكثرة الألفاظ عن حضور القلب والعمل بمقتضاها.

فلنبدأ بما نستطيع، ولنجعل لنا نصيبًا من ذكر الله تعالى في صباحنا ومسائنا، وفي عباداتنا وأعمالنا، وفي أحوال اليسر والعسر.

ولننظر كذلك في أحوال نفوسنا: ما الأخلاق التي نحتاج إلى تهذيبها؟ وما العادات التي ينبغي أن نصلحها؟ وما الأعمال الصالحة التي يمكن أن نداوم عليها؟

فالتزكية ليست معرفةً بعيوب النفس فحسب، بل مجاهدةٌ لإصلاحها، وصبرٌ على تهذيبها، ومداومةٌ على الخير، مع الاستعانة بالله تعالى والافتقار إليه في كل حال.

ولا ينبغي أن يثنينا عن السير ما نجده من تقصير أو ضعف، بل نجدد التوبة، ونستعين بالله، ونعود إلى العمل، راجين رحمته وتوفيقه.

وهذه الرسالة ليست إلا مدخلًا إلى معالم السير إلى الله تعالى؛ أما تفاصيل مقامات الدين ومنازلها، وما يتصل بها من أحوال وآداب، فلها مجال أوسع، نرجو أن نتناول بعضه، إن شاء الله تعالى، في رسائل أخرى من سلسلة «بصائر».

وإلى أن يتيسّر ذلك، فلنجعل من هذه القراءة بداية عمل، ومن الذكر زادًا يعيننا على الطريق، ومن تزكية النفس مقصدًا نجتهد في تحقيقه يومًا بعد يوم.

فليس المهم أن نعرف الطريق فحسب، بل أن نبدأ السير فيه، وأن نثبت عليه، مستعينين بالله تعالى، راجين رضاه والقرب منه.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا قلوبًا ذاكرة، ونفوسًا زكية، وأعمالًا صالحة متقبّلة، وأن يهدينا إلى صراطه المستقيم، ويعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.
آمين.

بَصَائِر | الرِّسَالَةُ الْأُولَى

الْفَاتِحَةُ

أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ، نُرَدِّدُهَا كُلَّ يَوْمٍ، فَهَلْ نَهْتَدِي بِهَا فِي حَيَاتِنَا؟

رِسَالَةٌ قَصِيرَةٌ تَدْعُو إِلَى إِعَادَةِ التَّأَمُّلِ فِي سُورَةٍ نَأْلَفُ تِلَاوَتَهَا، وَاسْتِحْضَارِ عَظِيمِ مَنْزِلَتِهَا، وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهَا، وَالسَّعْيِ إِلَى الِاهْتِدَاءِ بِهَا فِي حَيَاتِنَا.

اِضْغَطْ هُنَا لِلِاطِّلَاعِ عَلَى رَسَائِلِ بَصَائِر